

معانى الكلمات :

ودا : مودة .

لدا : شديد الخصومة .

ركزا : صوتا خفيا .

الثرى : التراب .

آنس : أبصر .

قبس : شعلة من نار مأخوذة على رأس

عود .

المقدس : المطهر المبارك .

طوى : الوادى المسمى طوى .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نقف على محبة الله لأوليائه ممن آمن وعمل صالحا .

٢ - أن نتعرف على وظيفة الرسول وحدود تكاليفه .

٣ - أن نعلم ما كان من أمر مناجاة الله لموسى عليه السلام .

المحتوى التربوى :

فى وسط الوحدة والوحشة والرهبه ترفرف على المؤمنىن ظلال ندىة من الود السامى ، ود الرحمن ، والتعبىر بالود فى هذا الجو نداوة رخىة تمس القلوب ، وروح رضا يلمس النفوس ، وهو ود يشىع فى الملاء الأعلى ، ثم فىفض على الأرض والناس ، فىمتملى به الكون كله وفىفض .

عن أبى هريرة ؓ عن النبى ﷺ ، قال : « إن الله إذا أحب عبدا دعا جبرىل ، فقال : يا جبرىل إبنى أحب فلانا فأحبه ، قال : فىحبه جبرىل ، ثم ىنادى فى أهل السماء : إن الله فىحب فلانا فأحبه . قال : فىحبه أهل السماء ، ثم ىوضع له القبول فى الأرض ، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبرىل ،

فقال : يا جبريل ، إنى أبغض فلانا فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ، قال : فيبغضه أهل السماء ، ثم يوضع له البغضاء فى الأرض .

وهذه البشرى للمؤمنين المتقين ، والإنذار الذى سبقه للجاحدين الخصيمين هما غاية هذا القرآن ، ولقد يسره الله بلسان نبيه ﷺ وهو اللسان العربى المبين ليقرؤوه .

وتحتم السورة بمشهد يتأمله القلب طويلا ، ويرتعش له الوجدان طويلا ، ولا ينتهى الخيال من استعراضه ، وهو مشهد بيدوك بالرجة المدمرة ، ثم يغمرك بالصمت العميق ، وكأنها يأخذ بك إلى وادى الردى ، ويقفك على مصارع القرون ، وفى ذلك الوادى الذى لا يكاد يحده البصر ، يسبح خيالك مع الشخوص التى كانت تدب وتحرك والحياة التى كانت تنبض وتمرح ، ثم إذا الصمت يخيم ، والموت يجثم ، وإذا الجثث والأشلاء والبلى والدمار ، لا حس ولا حركة ، ولا صوت ، انظر وتلفت ، تسمع وأنصت ، فلا ترى إلا السكون العميق والصمت الرهيب ، وما من أحد إلا الواحد الحى الذى لا يموت .

سورة طه

تبدأ هذه السورة وتحتم خطابا للرسول ﷺ ببيان وظيفته وحدود تكاليفه ، إنها ليست شقوة كتبت عليه ، وليست عناء يعذب به ، إنها هى الدعوة والتذكرة وهى التبشير والإنذار ، وأمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذى لا إله غيره ، المهيمن على ظاهر الكون وباطنه ، الخبير بظواهر القلوب وخوافيها ، الذى تعنو له الجباه ، ويرجع إليه الناس : طائعتهم وعاصيهم ، فلا على الرسول ممن يكذب ويكفر ولا يشقى ؛ لأنهم يكذبون ويكفرون .

تبدأ السورة بالحروف المقطعة ، ويختار هنا حرفان ينتهيان بإيقاع كإيقاع السورة ، ويقصران ولا يمدان لتنسيق الإيقاع كذلك ، ويتلو هذين الحرفين حديث القرآن فى صورة خطاب إلى الرسول ﷺ ، أنه ما أنزلنا عليك القرآن ليؤدى إلى شقائك به أو بسببه ، ما أنزلناه لتشقى بتلاوته والتعبد به حتى يجاوز ذلك طاقتك ويشق عليك ، فهو ميسر للذكر ، لا تتجاوز تكاليفه طاقة البشر ، ولا يكلفك إلا ما فى وسعك ، ولا يفرض عليك إلا ما فى طوقك والتعبد به فى حدود الطاقة نعمة لا شقوة .

وما أنزلناه عليك لتشقى مع الناس حين لا يؤمنون به ، فلست مكلفاً أن تحملهم على الإيابة حملا ، ولا أن تذهب نفسك عليهم حسرات ، وما كان هذا القرآن إلا للتذكير والإنذار ، والذى يخشى يتذكر حين يذكر ، ويتقى ربه فيستغفر وعند هذا تنتهى وظيفة الرسول ﷺ ، فلا يكلف فتح مغاليق القلوب ، والسيطرة على الأفئدة والنفوس ، إنها ذلك إلى الله الذى أنزل هذا القرآن

وهو المهيمن على الكون كله ، والذي نزل القرآن هو الذى خلق السموات والأرض وهو الرحمن فما نزله على عبده ليشقى ، وهو المهيمن على الكون كله فهو على العرش قد علا وارتفع بما يليق به دون كيفية .

قال ابن كثير : « والمسلك الأسلم فى ذلك طريقة السلف من إمرار ما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة من غير تكيف ، ولا تحريف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ولا تمثيل » .

ومع الهيمنة والاستعلاء الملك والإحاطة ، فله ما فى الوجود كله وهو أكبر مما فى السموات وما فى الأرض ، وما بينهما وما تحت الثرى ، وعلم الله يحيط بما يحيط به ملكه ، والخطاب للرسول ﷺ لطمأنة قلبه بأن ربه معه يسمعه ، ولا يتركه وحده يشقى بهذا القرآن ، ويواجه الكافرين بلا سند ، فإذا كان يدعوه جهراً فإنه يعلم السر وأخفى ، والقلب حين يستشعر قرب الله منه وعلمه بسرّه ونجواه ويطمئن ويرضى ، ويأنس بهذا القرب فلا يستوحش من العزلة بين المكذبين المناوتين ولا يشعر بالغرابة بين المخالفين له فى العقيدة والشعور .

ويختم هذا المطلع بإعلان وحدانية الله بعد إعلان هيمنته ، وملكيته وعلمه ، وله الأسماء الحسنى ، ثم يقص الله على رسوله حديث موسى وما يتجلى فيه من رعاية الله وهداية له ، فها هو ذا موسى ﷺ فى الطريق بين مدين ومصر إلى جانب الطور ، ها هو ذا عائد بأهله بعد أن قضى فترة التعاقد بينه وبين نبي الله شعيب ، وقد خطر له أن يفارق شعبياً ويستقل بنفسه وبزوجيه ، ويعود إلى البلد الذى نشأ فيه ، وفى عودته ضل طريقه نعرف هذا من بحثه عن النار ؛ لتكشف له الطريق ، أو يجد عندها القرى والضيافة ، ومن يهديه إلى الطريق .

لقد ذهب يطلب قبسا من النار ويطلب هاديا فى السرى ، ولكنه وجد المفاجأة الكبرى ، وجد المناادة الإلهية ، فكانت تلك الذرة الصغيرة الضعيفة المحدودة تواجه الجلال الذى لا تدركه الأبصار ، الجلال الذى تتضاءل فى ظله الأرض والسموات ، نودى بطريقة ما ، فتلقى بطريقة ما ، فذلك من أمر الله الذى تؤمن بوقوعه ، ولا نسأل عنه ، نودى يا موسى إنك فى الحضرة العلوية فتجرد بقدميك ، وفى الوادى الذى تتجلى عليه الطلعة المقدسة فلا تطأه بتعليك .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - وظيفة الرسول ﷺ تبشير المؤمنين وإنذار الكافرين فما عليه إلا البلاغ .

٢ - لا ينتفع بالقرآن ومواعظه وأحكامه إلا من كان فى قلبه خشية لله ، وميل إلى الهداية .

٣ - رعاية الرجل لأهله ، وسعيه فى قضاء مصالحهم .

٤ - ينبغي مراقبة الله ، فعلمه محيط بكل شىء .

معاني الكلمات :

يصد : يصرف .

تردى : تهلك .

أتوكأ : أعتمد .

أهش بها : أهرز بها ورق الشجر اليابس

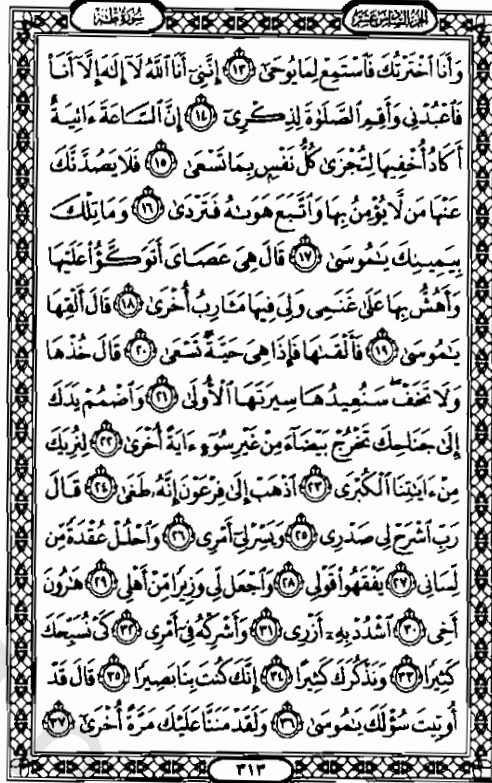
فيتساقط .

مآرب : حاجات .

جناحك : جنبك .

بيضاء : لها شعاع يغلب شعاع الشمس .

أزرى : ظهرى وقوتى .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعلم أسس رسالة الله الواحدة .

٢ - أن نعرف أن لذة القرب لا يشعر بها إلا من عايشها .

٣ - أن نقف على قدرة الله تعالى وتأيبده رسله بالمعجزات والبراهين الدالة على صدقهم .

المحتوى التربوي :

يعلن السياق التكريم لموسى والاختيار لحمل الرسالة ثم أتى التنبيه للتلقى ، ويتم التلخيص لما يوحى في ثلاثة أمور مترابطة : الاعتقاد بالوحدانية ، والتوجه بالعبادة ، والإيمان بالساعة ، وهى أسس رسالة الله الواحدة ؛ فالألوهية الواحدة فهى قوام العقيدة ، والله فى نداءه لموسى الطاهر يؤكدها بكل المؤكدات ، بالإثبات المؤكد ﴿ إِنِّى أَنَا اللَّهُ ﴾ وبالقصر المستفاد من النفى والاستثناء : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ الأولى لإثبات الألوهية لله ، والثانية لفيها عن سواه ، وعلى الألوهية ترتب العبادة ، والعبادة تشمل التوجه لله فى كل نشاط الحياة ، ولكنه يخص بالذكر منها الصلاة ، لأن الصلاة أكمل صورة من صور العبادة ، وأكمل وسيلة من وسائل الذكر ؛ لأنها تتمحض لهذه الغاية ، وتتهياً فيها النفس لهذا الغرض وحده ، وتتجمع للاتصال بالله ، وأما الساعة فهى الموعد

المرتقب للجزاء الكامل العادل ، الذى توجه إليه النفوس فتحسب حسابه ، وتسير في الطريق وهى تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق ، والله سبحانه يؤكد مجيئها ، وأنه يكاد يخفيها ليحزى كل عامل بعمله .

والفطرة السليمة تؤمن من نفسها بأن الحياة الدنيا لا تبلغ فيها الإنسانية كلها ، ولا يتم فيها العدل تمامه ، وأنه لا بد من حياة أخرى يتحقق فيها الكمال المقدر للإنسان ، والعدل المطلق في الجزاء على الأعمال ، واتباع الهوى هو الذى ينشئ التكذيب بالساعة .

ويتلقى موسى سؤالاً لا يحتاج إلى جواب : سؤالاً عما في يمينه ، ولم يكن عن وظيفة العصا في يده ، ولكنه أدرك أن ليس عن ماهيتها يسأل ، فهى واضحة ، إنما عن وظيفتها معه فأجاب بأقصى ما يعرفه عن تلك العصا : أنه يتوكأ عليها ، ويضرب بها أوراق الشجر ؛ لتساقط فتأكلها الغنم ، وأنه يستخدمها في أغراض أخرى من هذا القبيل أجملها ولم يعددها لأن ما ذكره نموذج منها .

ولكن ها هى ذى القدرة القادرة تصنع بتلك العصا في يده ما لم يخطر له على بال ، تمهيداً للتكليف بالمهمة الكبرى ، ووقعت المعجزة الخارقة التى تقع في كل لحظة ، ولكن الناس لا ينتبهون إليها ، وقعت معجزة الحياة ، فإذا العصا حية تسعى ، وقعت المعجزة فدهش لها موسى وخاف ، فطمئن فاطمأن والتقط الحية ، فإذا هى تعود سيرتها الأولى ، عصا ، ووقعت المعجزة في صورتها الأخرى ، صورة سلب الحياة من الحى ، فإذا هو جامد ميت ، كما كان من قبل أن تدركه المعجزة الأولى .

وصدر الأمر العلوى مرة أخرى إلى عبده موسى بضم يده إلى جناحه ، ووضعها تحت إبطه ، والسياق يختار للإبط والذراع صورة الجناح لما فيها من رفرقة وطلاقة وخفة في هذا الموقف المجنح الطليق من ربة الأرض وثقله الجسم لتخرج بيضاء لا مرض أو آفة ، ولكن آية أخرى مع آية العصا ، ليرى موسى من آيات ربه الكبرى فيشهد وقوعها بنفسه تحت بصره وحسه ، فيطمئن للنهوض بالتبعية الكبرى .

وإلى هنا لم يكن موسى يعلم أنه متدب لهذه المهمة الضخمة ، مهمة الذهاب إلى فرعون ودعوته ، وإنه ليعرف من هو فرعون ، فقد ربي في قصره وشهد طفيانه وجبروته ، وشاهد ما يصبه على قومه من عذاب ونكال ، وهو اللحظة في حضرة ربه ، يحس الرضا والتكريم والحفاوة ، فليسأل كل ما يطمئنه على مواجهة هذه المهمة العسيرة ، ويكفل له الاستقامة على طريق الرسالة .

لقد طلب إلى ربه أن يشرح له صدره ، وانشرح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة ، ويحيل عناء لذة ، ويجعله دافعاً للحياة لا عبثاً يثقل خطا الحياة .

وطلب إلى ربه أن يسر له أمره ، وتيسر الله لعباده هو ضمان النجاح ، وإلا فإماذا يملك الإنسان بدون هذا التيسير؟ ماذا يملك ، وقواه محدودة وعلمه قاصر والطريق طويل وشائك ومجهول؟!

وطلب إلى ربه أن يحل عقدة لسانه فيفقهوا قوله ، وقد روى أنه كانت بلسانه حيسه ، والأرجح أن هذا هو الذى عناه ، وقد دعا ربه في أول الأمر دعاء شاملا بشرح الصدر وتيسير الأمر ، ثم أخذ يحدد ويفصل ما يعينه على أمره ويسر له تمامه .

وطلب أن يعينه الله بمعين من أهله ؛ هارون أخيه ، فهو يعلم عنه فصاحة اللسان ، وثبات الجنان وهذوء الأعصاب ، فطلب إلى ربه أن يعينه بأخيه يشد أزره ويقويه ، ويتروى معه في الأمر الجليل الذى هو مقدم عليه .

والأمر الجليل الذى هو مقدم عليه يحتاج إلى التيسير الكثير ، والذكر الكثير والاتصال الكثير بالسميع البصير ، فموسى عليه السلام يطلب أن يشرح الله صدره ويسر له أمره ، ويحل عقدة من لسانه ، ويعينه بوزير من أهله ، كل أولئك لا يواجه المهمة مباشرة ؛ ولكن ليتخذ ذلك كله مساعداً له ولأخيه على التيسير الكثير والذكر الكثير ، والتلقى الكثير من السميع البصير الذى يعرف الحال ، ويطلع على الضعف والقصور ، ويعلم الحاجة إلى العون والتدبير .

لقد أطال موسى سؤله ، وبسط حاجته ، وكشف عن ضعفه ، وطلب العون والتيسير والاتصال الكثير ، وربيه يسمع له وهو ضعيف في حضرته ، ناداه وناجاه ، فها هو ذا الكريم المنادى لا ينجل ضيفه ، ولا يرد سائله ، ولا يبطئ عليه بالإجابة الكاملة هكذا مرة واحدة في كلمة واحدة ، فيها إجمال يغنى عن التفصيل ، وفيها إنجاز لا وعدٌ ولا تأجيل كل ما سألته أعطيته ، وفيها مع الإنجاز عطف وتكريم وإيناس بندائه باسمه يا موسى ، وأى تكريم أكبر من أن يذكر الكبير المتعال اسم عبد من العباد؟

قال صاحب الأساس : « من كلام موسى عليه السلام عندما سأل الله أن يؤيده بأخيه نفهم أدب الأخوة في الله والغاية منها ، فالأدب شد الأزر ، والاشتراك في الأمر ، والهدف ذكر الله وتسيبجه ، فما لم يتحقق بالأخوة كثرة الذكر لا تكون أخوة خالصة في الله وإذا كان لها هدف آخر غير ذلك فليست أخوة في الله » .

ما ترشدنا إليه الآيات تروياً :

- ١ - المتعة والراحة والأمن والطمأنينة لا تكون إلا في رحاب الله من خلال طاعته .
- ٢ - لا خوف ولا فزع في الطريق إلى الله ، فالله عز وجل يؤيد رسله والمؤمنين .
- ٣ - على المسلم أن يعد للأمر عدته ، ويستعين بها يساعده على الوصول إلى غايته .

معاني الكلمات :

التابوت : الصندوق .

البيم : النهر .

تصنع : تربي .

يكفل : يضم ويحفظ .

نقر : نُسر .

فتناك : خلصناك .

تنيا : تفترا .

يفرط : يعجل الأذى .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعلم أن الأخذ بالأسباب في الدعوات وغيرها لا بد منه .

٢ - أن نراعى الحكمة في دعوة الناس إلى ربهم .

٣ - أن نتعلم عدم المؤاخذه على الخوف حيث وجدت أسبابه .

المحتوى التربوي :

طال التجلي وطال النجاء ، وأجيب السؤال وقضيت الحاجة ، وفضل الله لا خازن له ، ورحمة الله لا محسك لها ، فهو يغمر عبده بمزيد من فضله ، وفيض من رضاه ، فيستقيه في حضرته ليزيده اطمئنانا وأنسا بموصول رحمته وقديم رعايته ، وكل لحظة تمر وهو في هذا المقام الوضيء هي متاع ونعمى وزاد ورسيد .

إن موسى ذاهب لمواجهة أقوى ملك في الأرض وأطغى جبار ، إنه ذاهب إلى خصم من الأحداث والمشكلات مع فرعون أول الأمر ، ثم مع قومه بنى إسرائيل وقد أذلهم الاستعباد الطويل ، وأفسد فطرتهم ، وربّه يطلعه على أنه لن يذهب غفلاً من التهيؤ والاستعداد ، وأنه لم

يرسل لإبعد التهيئة والإعداد ، وأنه صنع على عين الله منذ زمان ، ودرب على الميثاق وهو طفل رضيع ، ورافقه العناية وسهرت عليه وهو صغير ضعيف ، وكان تحت سلطان فرعون وفي تناوله وهو مجرد من كل عدة ، ومن كل قوة فلم تمتد إليه يد فرعون ؛ لأن يد القدرة كانت تسنده وعين القدرة كانت ترعاه في كل خطاه ، فلا عليه اليوم من فرعون ، وقد بلغ أشده وربّه معه ، قد اصطنعه لنفسه ، واستخلصه واصطفاه .

فالمنة قديمة ممتدة مطردة ، سائرة في طريقها معك منذ زمان فلا انقطاع لها إذن بعد التكليف ، فلقد منّا عليك إذ أوحينا إلى أمك وألمناها ما يلهم في مثل حالها ، ذلك الإلهام ، قذف بالطفل في التابوت ، وقذف في اليم بالتابوت ، واللقاء للتابوت على الساحل ، حركات كلها عنف وكلها خشونة ، ثم يتسلمه عدولى وعدوله .

في زحمة هذه المخاوف كلها تجعل القدرة القادرة من المحبة الهينة اللينة درعا تتكسر عليها الضربات ، وتتحطم عليها الأمواج ، وتعجز قوى الشر والطغيان أن تمس حاملها بسوء ولو كان طفلاً رضيعاً لا يصول ولا يجول ، بل لا يملك أن يقول .

وكان من تدبير الله أن جعل الطفل لا يقبل ثدى المرضعات ، وفرعون وزوجه وقد تبينا الطفل يبحثان له عن مرضع ، فيتابع الناس ، وتروح أخت موسى بإيماء من أمها تقول لهم . هل أدلكم على من يكفله ؟ وتجيء لهم بأمه فيلقم ثديها ، وهكذا يتم تدبير الله للطفل وأمّه ، ويكون الأمن بإلقائه بين هذه المخاوف .

ومنة أخرى : حين قتل المصرى وكان ينوى دفعه ، وتخرج ضميره من اندفاعه ، فهداه ربه إلى الاستغفار فشرح صدره بهذا ونجاه من الغم ، وكانت التربية في هذا الموقف العسر بالخوف والحرب من القصاص والغربة ومفارقة الأهل والوطن ، وبالخدمة ورعى الغنم ، وهو الذى تربى في قصر أعظم ملوك الأرض ، وجاز الامتحان وتهيأت الظروف والأحوال في مصر ، وبلغ العذاب بينى إسرائيل مداه ، في ذلك الوقت جىء بموسى من أرض مدين خالصاً مستخلصاً ممحضاً لله ولرسالته ودعوته ، ليس به شىء من هذه الدنيا ولا لهذه الدنيا .

ويأتى الأمر العلى لمن صنع على عين الله واستخلص لرسالته : اذهب أنت وأخوك مزودين بآياتى وحججى وبراهينى ومعجزاتى ولا تبطلنا ولا تفترأ فى ذكرى ، اذهباً إلى فرعون فقد طغى وتجر وعتا ، فقولا له القول اللين ، فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم ولا يهيج الكبرياء الزائف الذى يعيش به الطغاة ، ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان ، راجين أن يتذكر ويخشى .

يقول صاحب الظلال : « الداعية الذى يأس من اهتداء أحد بدعوته لا يبلغها بحرارة ، ولا يثبت عليها في وجه الجحود والإنكار والأخذ بالأسباب في الدعوات وغيرها لا بد منه » .

ويطوى السياق المسافات والأبعاد والأزمان ، فإذا هارون مع موسى ، وإذا هما معا يكشفان لربهما عن خوفهما من مواجهة فرعون ، ومن التسرع في أذاه ، ومن طغيانه إذا دعواه ، هنا يجيئها الرد الحاسم الذى لا خوف بعده ، ولا خشية معه بأنه معها ، وكان هذا الإجمال يكفى ، ولكنه يزيدهما طمأنينة ولسا بالحس للمعونة ، فما يملك فرعون والله معها يسمع ويرى ، ومع الطمأنينة الهداية إلى صورة الدعوة وطريق الجدال ، فيذهب إلى فرعون ، وكان البدء بإيضاح قاعدة رسالتها أنها من عند رب الناس ، ثم كان الإيضاح لموضوع الرسالة وهو استنقاذ بنى إسرائيل والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد ، وإلى الأرض المقدسة ؛ ثم كان الاستشهاد على صدق رسالتها بمجيئها بآية من رب العالمين ، وكان الترغيب والاستحالة بالسلام عليه إن اتبع الهدى .

ثم كان التهديد والتحذير غير المباشرين كى لا يثيرا كبرياءه وطمغيانه ، فقد أخبرها الله أن العذاب لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته ، فلعله لا يكون ممن كذب وتولى ، هكذا ألقى الله الطمأنينة على موسى وهارون ، وهكذا رسم لها الطريق ، ودبر لها الأمر ليمضيا آمنين عارفين هادين .

وهنا يسدل الستار ليرفع ، فإذا هما أمام الطاغية في حوار وجدال ، لقد أتيا فرعون ، وبدأ المشهد بما دام بينه وبين موسى عليه السلام من حوار ، ويسأل موجها الكلام إلى موسى لما بدا له أنه هو صاحب الدعوى : من ربكما الذى تتكلمان باسمه وتطلبان إطلاق بنى إسرائيل ؟

يقول صاحب الظلال : « والوصف الذى يحكيه القرآن الكريم عن موسى عليه السلام يلخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود : هبة الوجود لكل موجود ، وهبة خلقه على الصورة التى خلق بها ، وهبة هدايته للوظيفة التى خلق لها .. » .

ويشئ فرعون بسؤال آخر : ما شأن القرون التى مضت من الناس ؟ أين ذهبت ومن كان ربها ؟ وما يكون شأنها وقد هلكت لا تعرف إلهها هذا ؟

ما ترشدنا إليه الآيات تروياً :

١ - رحمة الله تعالى ورعايته لكل من يحمل دعوته ولعباده المؤمنين .

٢ - حنان الأمومة وشدة عاطفتها نحو أبنائها ، مما يوجب على الأبناء مراعاة حق الوالدين

وإكرامهما .

٣ - الدعوة إلى الله تتطلب من الداعية أن يكون لطيفاً في دعوته ، رفيقاً بمن يدعوه .

معاني الكلمات

- سلك : جعل .
 سبلا : طرقا .
 أزواجا : أصنافا وأنواعا .
 النهى : العقول السليمة .
 آياتنا : معجزاتنا .
 سوى : وسطا .
 فيسحتكم : فيهلككم .
 المثلى : الفضلى .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نتعرف على بعض الآيات الكونية التي تدل على قدرة الخالق وألوهيته .
- ٢ - أن نقف على كبر فرعون وصلفه وطغيانه .
- ٣ - أن نعلم مشروعية المباراة لإظهار الحق وإبطال الباطل .

المحتوى التربوي :

يمضي السياق فيحيل موسى جواب السؤال إلى ربه الذي لا يفوت علمه شيء ولا ينسى شيئا ، فهو الذي يعلم شأن تلك القرون كلها في ماضيها وفي مستقبلها ، والغيب لله والتصرف في شأن البشر لله ، ويستطرد فيعرض على فرعون آثار تدبير الله في الكون وآلائه على بني الإنسان فيختار بعض هذه الآثار المحبطة ، فالأرض كلها مهد للبشر في كل مكان وزمان ، مهد كمهد الطفل وما البشر إلا أطفال هذه الأرض ، يضمهم حضنها ويفذوهم درها ، وهي ممهدة لهم كذلك للسير والحرث والزرع والحياة ، جعلها الخالق كذلك يوم أعطى كل شيء خلقه .

والخالق المدير الذي جعل الأرض مهذا ، شق للبشر فيها طرقا وأنزل من السماء ماء ، ومن ماء المطر تتكون الأنهار وتفيض ، فيخرج النبات أزواجا من أجناس كثيرة ، وقد شاء الخالق

المدير أن يكون النبات أزواجا كسائر الأحياء ، وهي ظاهرة مطردة في الأحياء كلها ، والنبات في الغالب يحمل خلايا التذكير ، وخلايا التأنيث الواحدة ، وأحيانا يكون اللقاح في نبتة الفصائل والأنواع ، وما من عقل مستقيم يتأمل هذا النظام العجيب ثم لا يطلع فيه على آيات تدل على الخالق المدير الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

ويكمل السياق حكاية قول موسى مباشرة بقول من الله جل وعلا : من هذه الأرض التى جعلناها لكم مهدا ، وسلكتنا لكم فيها سبلا ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا به أزواجا من نبات شتى للأكل والمرعى ، من هذه الأرض خلقناكم ، وفي هذه الأرض يعيدكم ، ومنها نخرجكم بعد موتكم .

فالإنسان - كما ذكر الشيخ أبو زهرة : « عظامه ولحمه نبت من تراب ، فأدم أبوه ، وأبو الخليقة خلق من طين ثم كان غذاء ذريته من نبات الأرض الذى ينبت في الطين ، ومن حيوان الأرض الذى يتغذى من نباتها ، وهكذا كان لحمه ، ولقد كان خطاب الله تعالى لفرعون الذى استكبر واستعلى ليخفف من غلوائه » .

ومع رؤية فرعون الآيات الكونية التى وجهه إليها موسى ﷺ فيها حوله ، وآتى العصا واليد يحملها هنا لأنها بعض آيات الله ، وما في الكون منها أكبر وأبقى ، وهكذا لم يمض فرعون في الجدل ، لأن حجة موسى ﷺ فيه واضحة وسلطانه فيه قوى ، وهو يستمد حجته من آيات الله في الكون ، ومن آياته الخاصة معه ؛ إنها لجأ إلى اتهام موسى بالسحر الذى يجعل العصا حية تسعى ، ويجعل اليد بيضاء من غير سوء ، وقد كان السحر أقرب خاطر إلى فرعون ؛ لأنه منتشر في ذلك الوقت في مصر ، وإذا كان ما أقدم عليه موسى هو السحر فما أسهل الرد عليه ، فإن عند فرعون سحرا مثل هذا السحر .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا يفهم الطغاة أن دعوى أصحاب العقائد إنما تخفى وراءها هدفا من أهداف هذه الأرض ، وأنها ليست سوى ستار للملك والحكم ، ثم هم يرون مع أصحاب الدعوات آيات ، إما خارقة كآيات موسى ، وإما مؤثرة في الناس تأخذ طريقها إلى قلوبهم وإن لم تكن من الخوارق ، فإذا الطغاة يقابلونها بما يباينها ظاهريا ، سحر ناتى بسحر مثله ، كلام ناتى بكلام من نوعه ، صلاح نتظاهر بالصلاح ، عمل طيب نرائى بعمل طيب ، ولا يدركون أن للعقائد رصيذا من الإيثار ، ورصيذا من عون الله ، فهى تغلب بهذا وبذاك ، لا بالظواهر والأشكال » .

وهكذا طلب فرعون إلى موسى تحديد موعد المباراة مع السحرة ، وترك له اختيار ذلك الموعد للتحدى ، وشدد عليه في عدم إخلاف الموعد زيادة في التحدى ، وأن يكون الموعد في مكان مفتوح مكشوف مبالغة في التحدى ، وقبل موسى ﷺ تحدى فرعون له ، واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة ، يأخذ فيه الناس في مصر زيتهم ، ويتجمعون في الميادين والأماكن

المكشوفة ، وطلب أن يجمع الناس ضحى ؛ ليكون المكان مكشوفاً والوقت ضاحياً ، فقابل التحدى بمثله وزاد عليه اختيار الوقت في أوضح فترة من النهار وأشدّها تجمعا في يوم العيد .

وانتهى المشهد الأول من مشاهد اللقاء بين الإيوان والطغيان في الميدان ، ويسدل الستار ليرفع على مشهد المباراة ، ويحمل السياق كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه ، وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع وتحميس ووعد بالمكافأة ، وما فكر فيه ، وما دبر هو ومستشاروه يحمله في آية واحدة قصيرة في ثلاث حركات متواليات : ذهاب فرعون ، وجمع كيده ، والإتيان به .

ورأى موسى ~~الظلال~~ قبل الدخول في المباراة أن يبذل لهم النصيحة ، وأن يحذرهم عاقبة الكذب والافتراء على الله ، لعلهم يثوبون إلى الهدى ، ويدعون التحدى بالسحر والسحر افتراء ، والكلمة الصادقة تلمس بعض القلوب وتنفذ فيها ، ويبدو أن هذا الذي كان ، فقد تأثر بعض السحرة بالكلمة المخلصة ، فتلجلج في الأمر ، وأخذ المصريون على المباراة يجادلونهم همسا خيفة أن يسمعهم موسى .

وجعل بعضهم يحمس بعضا ، وراحوا يهيجون في المترددين الخوف من موسى وهارون اللذين يريدان الاستيلاء على مصر وتغيير عقائد أهلها ، مما يوجب مواجهتهما يداً واحدة بلا تردد ولا نزاع ، واليوم هو يوم المعركة الفاصلة والذي يغلب فيها الفالح الناجح .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة الصادرة عن عقيدة ، كالقذيفة في معسكر المبطلين وصفوفهم ، فتزعزع اعتقادهم في أنفسهم وفي قدرتهم ، وفي ما هم عليه من عقيدة وفكرة ، وتحتاج إلى مثل هذا التحميس والتشجيع ، وموسى وأخوه رجلان اثنان ، والسحرة كثيرون ، ووراءهم فرعون وملكه وجنده وجبروته وماله ، ولكن موسى وهارون كان معها ربهما يسمع ويرى » .

ولعل هذا هو الذي يفسر لنا تصرف فرعون الطاغية المتعبر ، وموقف السحرة ومن ورائهم فرعون ، فمن هو موسى ومن هو هارون من أول الأمر حتى يتجداهما فرعون ويقبل تحديهما ، ويجمع كيده ثم يأتي ، ويحشر السحرة ويجمع الناس ، ويجلس هو والملأ من قومه ليشهدوا المباراة؟ وكيف قبل فرعون أن يجادله موسى ويطاوله ؟ وموسى فرد من بنى إسرائيل المستعبدين المستذلين تحت قهره ؟ ! إنها الهيبة التي ألقاها الله على موسى وهارون وهو معها يسمع ويرى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ - من كان الله معه فلا يخاف من شيء ولا يحزن على شيء .

٢ - حرمة الكذب على الله تعالى ، وإنه ذنب عظيم يسبب دمار الكاذب وخسرانه .

٣ - للعقائد وصيد من الإيمان ، وصيد من عون الله وهي غالباً لمن يقف ضدها فلا خوف على أصحابها .



معانى الكلمات :

أوجس : أحس .

الأعلى : الفائز .

تلقف : تبتلع .

نؤثر : نختار .

فطرنا : أوجدنا .

أبقى : أدمم ثوابنا .

خالدين : ماكثين .

تزكى : طهر نفسه من دنس الشرك

والكفر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعلم أن شجاعة المؤمن لا يرهبها خوف بقتل ولا بصلب .
- ٢ - أن نعرف أن عذاب الدنيا يتحمل ويصبر عليه بالنظر إلى عذاب الآخرة .
- ٣ - أن نقف على جزاء كل من الكفر والمعاصي والإيمان والعمل الصالح في الدار الآخرة

المحتوى التربوي :

كانت استشارة الهمم ، والدعوة إلى التجمع والترابط والثبات ، وإقدام السحرة وهى دعوة؟ الميدان إلى النزال ، يبدو فيها التماسك وإظهار النصفة والتحدى ، وقبل موسى التحدى وترك لهم فرصة البدء ، واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة ، ولكن ماذا ؟ إنه لسحر عظيم فيها يبدو ، وحرمة مفاجئة ماجت بها الساحة حتى موسى أوجس في نفسه خيفة ومعه ربه يسمع ويرى ، حتى يذكره ربه بأن معه القوة الكبرى ، فلا تحف فأنت الأعلى ؛ معك الحق ومعهم الباطل ، معك العقيدة ومعهم الحرفة ، معك الإيمان بصدق ما أنت عليه ، ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة، أنت متصل بالقوة الكبرى وهم يخدمون مخلوقا بشريا فانها مهما يكن طاغية جبارا.

لا تخف وألق ما في يمينك تبتلع ما صنعوا ، وقد يبدو باطله ضخما فخما ، مخيفا لمن يغفل عن قوة الحق الكامنة الهائلة التي لا تبختر ولا تتناول ولا تتظاهر ، ولكنها تدمع الباطل في النهاية فإذا هو زاهق وتلقفه فتطويه ، فإذا هو يتوارى .

وألقى موسى ووقعت المفاجأة الكبرى ، ويصور السياق وقع المفاجأة في نفوسهم في صورة تحول كامل في مشاعرهم ووجدانهم وقد انبعث النور وأشرق الظلال ، فلمسة الإيمان للقلب البشرى تحوله في لحظة من الكفر إلى الإيمان، ولكن أنى للطغاة أن يدركوا كيف تتقلب القلوب؟ وهم قد نسوا لطول ما طغوا ويغوا ورأوا الأتباع ينقادون الإشارة منهم ، نسوا أن الله هو مقلب القلوب ، وأنها حين تتصل به وتستمد منه وتشرق بنوره لا يكون لأحد عليها سلطان .

وعدل فرعون إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة ، فهدهم وتوعدهم على تصديقهم له وإيمانهم به ، ويلتفت إلى سر استسلامهم في نظره وهو أنه الذي علمهم السحر ، وكان التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة ، ويسلطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح ، وكان تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف والتصليب في جذوع النخل ، والاستعلاء بالقوة الغاشمة قوة الوحوش في الغابة ، القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال ، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب .

ولكن كان قد فات الأوان ، وكانت اللمسة الإيمانية قد وصلت قوية قريمة وقد فتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لا تبالى أن تنظر بعدها إلى الأرض ، وما بها من عرض زائل ، ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه .

إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون ، وتعدد القربى منه مغنيا يتسابق إليه المتسابقون ، فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة ، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه ، وهانت عليهم أنفسهم في الله عز وجل ، فلن يختاروا فرعون على ما حصل لهم من الهدى واليقين ، وكيف يختارون فرعون على خالقهم الذي أنشأهم من العدم والمستحق للعبادة والخضوع .

وبلغ القلب تقواه فثبتت كلمات الحق على لسانه ، وارتعدت فرائص الباطل أمام عينيه ، فكان كل شيء هينا ، وكل عظيم حقيرا ، وأضحى فرعون في سلطانه كحشرة في ترابها ، وأمست الدنيا عجوزا لا يلتفت إليها ، وكيف يهتز قلب له أمل بالله أمام باطل ربط حباله يكد شيطان ، فليقتض فرعون ما هو قاض فما له سلطان إلا سلطان دنياه وهي هينة قصيرة ، وما تفعل دنيا بقوم قد اتصلوا برب الدنيا ، لا يملكون له عصيانا ، يرجون عفوه وغفرانه ، والله أبقي مغنمًا وجزاء ، وخير قسمة وجوارًا .

وألم السحرة الذين آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المعلم المستعلي ، فإذا كان يتهددهم بمن هو أشد وأبقى ، فما هي ذى صورة لمن يأتي ربه مجرماً هي أشد عذاباً وأدوم ، فلا هو ميت فيستريح ، ولا هو حي فيتمتع ، إنها هو العذاب في جهنم الذي لا ينتهي إلى موت ولا ولا ينتهي إلى حياة ، وفي الجانب الآخر الدرجات العلا ، جنات للإقامة ندية بها يجري تحت غرفاتها من أنهار ، وذلك جزاء من تطهر من الآثام .

وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر ، وواجهته بكلمة الإيذان القوية ، وباستعلاء الإيذان الواثق ، وبتحذير الإيذان الناصع ، وبرجاء الإيذان العميق ، ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلاناً لحرية القلب البشرى باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض وعلى الطمع في المثوبة والخوف من السلطان ، وما يملك القلب البشرى أن يجهر بهذا الإعلان القوى إلا في ظلال الإيذان .

يقول صاحب الأساس : « رأينا نموذجاً على الإيذان الصادق بالله ورسوله ، ونموذجاً عن الإيذان اليقيني باليوم الآخر ، وما هي آثار ذلك ، فهؤلاء سحرة فرعون عندما خالط الإيذان بالله واليوم الآخر قلوبهم ، أعلنوا إيذانهم في وجه فرعون واستهانوا بكل عقوباته وإتهاماته وتهديداته ، ولم يبق في قلوبهم إلا الرغبة في رضوان الله ونيل ثوابه وإذا كان السياق قد قص علينا ما يفعل الإيذان ، فقد قص علينا كذلك من خبر فرعون ما عرفنا به أن عدم الإيذان بوحي الله ليس إلا أثر الكبر والعنجهية .

ورأينا كيف أن السحرة تذكروا فلم يكن الوحي شقاء لموسى ولا لهم ، فالشقاء : هو بقاء الإنسان على الكفر ورفضه للحق ، والعبرة بالخواتيم في الدنيا والآخرة ، ولئن كانت خاتمة السحرة شهادة ، فإنها سعادة إذ هي أمنية المؤمنين وقد نالوا رضوان الله ، ولكن كيف كانت عاقبة فرعون ، وماذا أعد له في الآخرة ؟ إنه لا سعادة بدون هداية ، ولا شقاء معها ، ولا فلاح بدون إيذان ولا شقاء معه .

ما ترشدنا إليه الآيات ترويضاً :

١ - ألا ييأس المسلم إذا لم يمتد بدعوته ، وعليه مواصلة جهاده في الأمل مستخدماً كل ما في إمكانه .

٢ - لا يؤثر الكفر على الإيذان والباطل على الحق والخرافة على الدين الصحيح إلا أحمق جاهل .

٣ - الآخرة خير وأبقى ، وما عند الله ما له من نفاذ .

٤ - قوة القلب وبقينه أبلغ عوامل الانتصار .

معانى الكلمات :

يبسا : يبسا لا ماء فيه ولا طين .

دركا : إدراكا ولحاقا أو تبعة .

غشى : علا وغمر .

المن : مادة صمغية حلوة كالعسل .

السلوى : الطائر المعروف بالسان .

فتنا : ابتلينا .

ملكنا : قدرتنا وطاقتنا .

أوزارا : أثقالا أو آثاما .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعلم أن النصر لا يتحقق في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير .
- ٢ - أن نعرف أن الإيمان الكامل أثر عن الإيمان والعمل الصالح والتوبة .
- ٣ - أن نتعلم أن غدر بنى إسرائيل ونقضهم العهود طبيعة متأصلة فيهم من قديم الزمان

المحتوى التربوي :

يرفع الستار على حلقة من القصة جديدة ؛ إنه مشهد انتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود ، بعد انتصارها في عالم الفكرة والعقيدة ، فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر ، وانتصار الإيمان في قلوبهم على الرغب والرهب ، والتهديد والوعيد ، فالآن ينتصر الحق على الباطل ، والهدى على الضلال ، والإيمان على الطغيان في الواقع المشهود ، والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول ، فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير .

وما يستعلى أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن ، فللحق والإيمان حقيقة متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلت ليراها الناس في صورتها الواقعية ، فأما إذا ظل الإيمان مظهرًا لم يتجسم في الحق ، والحق شعارًا لا ينبع من الضمير ، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان ؛ لأنها يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان .

يجب أن تتحقق حقيقة الإيـان في النفس ، وحقيقة الحق في القلب فتصبحا أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعل بها الباطل ويصول بها الطغيان ، وهذا هو الذي كان في موقف موسى عليه السلام من السحر والسحرة ، وفي موقف السحرة من فرعون وملكه ، ومن ثم انتصر الحق في الأرض كما يعرضه هذا المشهد في سياق السورة .

ولا يطيل السياق في مشهد الخروج والوقوف أمام البحر ، بل يبادر بعرض مشهد النصر بلا مقدمات كثيرة ؛ لأن مقدماته كانت في الضائر والقلوب ، وإن هو إلا الإيـان لموسى أن يخرج بعباد الله من بنى إسرائيل ليلاً ، فيضرب لهم طريقاً في البحر يبسا بدون تفصيل ولا تطويل ، مطمئناً إلى أن عناية الله ترعاهم فلا يخاف أن يدركه فرعون وجنوده ، ولا يخشى من البحر الذي اتخذ له طريقاً يبسا فيه ، ويد القدرة التي أجرت الماء وفق الناموس الذي أرادته قادرة على أن تكشفه بعض الوقت عن طريق يابس فيه .

ويتبع فرعون بجنوده موسى ويحمل السياق كذلك ما غشى فرعون وقومه ولا يفصله ، ليبقى وقعه في النفس شاملاً مهولاً ، وقاد فرعون قومه إلى الضلال والبحر ، وكلاهما ضلال يؤدي إلى البوار ، ونقف أمام العبرة التي يتركها المشهد ونسمع لإيقاعه في القلوب ، فلقد تولت يد القدرة إدارة المعركة بين الإيـان والطغيان ، فلم يتكلف أصحاب الإيـان فيها شيئاً سوى اتباع الوحي والسرى ليلاً ، ذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين في عالم الواقع ، ولكن بعد أن اكتملت حقيقة الإيـان في نفوس الذين لا يملكون قوة سواها ، بعد أن استعلن الإيـان في وجه الطغيان لا يخشاه ولا يرهبه ، ولا يهرب وعيده ولا يرغب في شيء مما في يده ، وبلغت المعركة بين الإيـان والطغيان في عالم القلب إلى هذا الحد ، تولت يد القدرة راية الحق لترفعها عالية ، وتنكس راية الباطل بلا جهد من أهل الإيـان .

وفي ظلال النصر والنجاة يتوجه الخطاب إلى الناجين بالتذكير والتحذير ، كي لا ينسوا ولا يبطروا ، ولا يتجردوا من السلاح الوحيد الذي كان لهم في المعركة فضمنوا به النصر والنجاح ، فلقد جاوزوا منطقة الخطر، وانطلقوا ناجين ناحية الطور ، ونزل عليهم المن والسلوى في الصحراء ، قريب المتناول سهل التناول .

وهو يذكرهم بهذه النعم ليأكلوا من الطيبات التي يسرها لهم ، وتذرعهم من الطغيان فيها بالبطنة والانصراف إلى لذائذ البطون والغفلة عن الواجب الذي هم خارجون له ، والتكليف الذي يعدهم ربهم لتلقيه ، ويسميه طغياناً وهم قريبو العهد بالطغيان ، ولقد هوى فرعون منذ قليل ، هوى عن عرشه وهوى في الماء ، والهوى إلى أسفل يقابل الطغيان والتعالى ، وإلى جانب التحذير والإنذار يفتح باب التوبة لمن يخطئ ويرجع .

يقول صاحب الظلال : « والتوبة ليست كلمة تقال ، إنما هي عزيمة في القلب يتحقق مدلولها بالإيمان والعمل الصالح ، ويتجلى أثرها في السلوك العملي في عالم الواقع ، فإذا وقعت التوبة وصح الإيمان وصدقه العمل ، فهنا يأخذ الإنسان في الطريق على هدى من الإيمان ، وعلى ضمانة من العمل الصالح ، فلا هتداء هنا ثمرة ونتيجة للمحاولة والعمل » .

ويرفع مشهد المناجاة الثانية إلى جانب الطور الأيمن وقد غلب الشوق على موسى إلى مناجاة ربه ، والوقوف بين يديه ، وقد ذاق حلاوتها من قبل فهو إليها مشتاق عجول ، ووقف في حضرة مولاه ، وهو لا يعلم ما وراءه ، ولا ما أحدث القوم بعده حين تركهم في أسفل الجبل ، وهنا ينبئه ربه بما كان خلفه ، فما يكاد موسى يتركهم في رعاية هارون ويبعد عنهم قليلاً حتى تتخلخل عقيدتهم كلها وتنهار أمام أول اختبار ، ولم يكن بد من اختبارات متوالية وابتلاءات متكررة لإعادة بنائهم النفسى ، وكان أول ابتلاء هو ابتلاؤهم بالعجل الذى صنعه لهم السامرى ، ولم يكن لدى موسى علم بهذا الابتلاء .

وينهى السياق موقف المفاجأة على عجل ويطويه ليصور انفعال موسى ~~الذي~~ مما علم من أمر الفتنة ، ومسارعه بالعودة وفي نفسه حزن وغضب ، وراح يوبخ قومه ويسألهم في حزن وغضب أما وعدكم ربكم على لسانى كل خير في الدنيا والآخرة ؛ وقد وعدهم الله بالنصر ودخول الأرض المقدسة في ظل التوحيد ، ولم يمض على هذا الوعد وإنجاز مقدماته طويل وقت ، ويؤنبهم في استنكار : أظال عليكم انتظار ما وعد الله ؟ فعملكم هذا عمل من يريد أن يحل عليه غضب من الله ، أتعمدتم حلول الغضب فأخلفتم موعدى .

وعندئذ يعتذرون بذلك العذر العجيب : بأن الأمر كان أكبر من طاقتنا وما كان الإخلاف في قدرتنا ، وأخبروه عن تورعهم المزعوم عما كان بأيديهم من حلى القبط الذى كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر فألقيناها عنا ثم جاء ذلك السامرى فألقى عليها تلك القبضة التى أخذها من أثر الرسول .

ما ترشدنا إليه الآيات تريبواً :

١ - تحريم الإسراف والظلم وكفر النعم .

٢ - ذم العجلة وبيان آثارها الضارة .

٣ - الحث على طلب رضا الله تعالى ولكن بما يجب أن يتقرب إليه به .

٤ - مشروعية الغضب لله تعالى والحزن على ترك عبادته بمخالفة أمره ونهيه .

معانى الكلمات :

جسدا : مجسدا .

نبرح : ترك .

منتمك : حملك .

ترقب : تحفظ .

سولت : زينت .

لا تماسس : لا تمسني ولا أمسك .

ظلت : بقيت .

وسع : أحاط وأحصى .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١- أن نعلم أن روح الورع لا تكفى بل ينبغي معها العلم والوعى .

٢- أن نقف على فن العتاب والاعتذار .

٣- أن نربى أنفسنا على الغيرة والغضب لدين الله عز وجل .

المحتوى التربوي :

صاغ السامري من الحلى وجعل له منافذ إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتا كصوت الخوار ولا حياة فيه ولا روح فهو جسد ، والجسد يطلق على الجسم الذى لا حياة فيه ، وما كاد القوم يرون عجلا ذهبيا يخور حتى نسوا ربهم الذى أنقذهم من الذل، وعكفوا على عجل الذهب ، وفي بلاهة فكر وبلادة روح قالوا : إن العجل إلههم وإله موسى ، راح يبحث عنه على الجبل وهو هنا معنا ، وقد نسى موسى الطريق إلى ربه وضل عنه .

يقول صاحب الأساس : « فيما فعله السامري وقصه الله علينا درس بليغ جداً ، فقد استغل السامري روح الورع التي رباها موسى عليه السلام في أتباعه ليوجهها توجيهاً سيئاً يخدم أغراضه الكافرة ، وذلك قد يحدث دائماً إذا لم يوجد علم ووعي ، وكل فرد من المسلمين على غاية من العلم والوعي فإن استعدادهم للفتنة يبقى قائماً ، وقد تكون الفتنة باسم الدين نفسه » .

ولقد نصح لهم هارون عليه السلام وهو نبينهم كذلك ، والنائب عن نبينهم المنقذ ، ونبينهم إلى أن هذا ابتلاء وفتنة لكم وربيكم الرحمن ، ونصحهم باتباعه وطاعته كما تواعدوا مع موسى ، وهو غائد إليهم بعد ميعاده مع ربه على الجبل ، ولكنهم بدلاً من الاستجابة له التوا وتملصوا من نصحه ومن نبينهم بطاعته ، فلن يتركوا عبادته حتى يسمعوا كلام موسى فيه ، ويرجع موسى في ثورته إلى قومه ، والتفت إلى أخيه وهو في فورة الغضب يأخذ بشعر رأسه ويلحيتيه في انفعال وثورته يؤذنه على تركهم يعبدون العجل دون أن يبطل عبادته .

وقد قرر السياق ما كان من موقف هارون ، فهو يطلع أخاه عليه ويعرض له وجهة نظره في صورة الطاعة لأمره حسب تقديره ، وأنه خشى إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيئاً بعضها مع العجل وبعضها مع نصيحة هارون ، وقد أمره بأن يحافظ على بنى إسرائيل ولا يحدث فيهم أمراً ، فهي كذلك طاعة الأمر من ناحية أخرى ، وعندئذ يتجه موسى بغضبه وانفعاله إلى السامري صاحب الفتنة من أساسها .

يقول صاحب الظلال : « إنما لم يتوجه إليه منذ البدء ؛ لأن القوم هم المسؤولون ألا يتبعوا كل ناعق ، وهارون هو المسؤول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هموا بذلك وهو قائدهم المؤمن عليهم ، فأما السامري فذنبه يجيء متأخراً لأنه لم يفتنهم بالقوة ، ولم يضرب على عقولهم ، إنما أغواهم فغوا ، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبينهم الأول ونصح نبينهم الثاني ، فالتبعة عليهم أولاً وعلى راعيهم بعد ذلك ، ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيراً » .

اتجه موسى إلى السامري ، وسأله عن شأنه وقصته ، وأجاب السامري فقال : رأيت جبريل حين جاء هلاك فرعون فقبضت قبضة من أثر فرسه فألقيتها على عجل الذهب ، فكان له هذا الخوار أو إنها هي التي أحالت كوم الذهب عجلاً له خوار ، والقرآن يحكى عن السامري مجرد حكاية ، ونميل إلى اعتبار هذا عذراً من السامري وتملصاً من تبعة ما حدث ، وأنه هو صنع العجل من الذهب الذي قذفه بنو إسرائيل من زينة المصريين التي أخذوها معهم ، وأنه صنعه بطريقة تجعل الريح تصوت في فراغه فتحدث صوتاً كالخوار .

وعلى أية حال فقد أعلنه موسى عليه السلام بالطرده من جماعة بنى إسرائيل مدة حياته ، ووكّل أمره بعد ذلك إلى الله ، وواجهه بعنف في أمر إلهه الذي صنعه بيده ؛ ليرى قومه بالدليل المادى أنه ليس إلهًا ، فهو لا يحمى صناعه ، ولا يدفع عن نفسه ، فكما أخذ ومس ما لم يكن أخذه ومسّه من أثر الرسول فعقوبته في الدنيا أن يذهب مطرودًا لا يمسه أحد لا بسوء ولا بخبر ، ولا تمس أحدًا ، وكانت هذه إحدى العقوبات في ديانة موسى ، عقوبة العزل ، وإعلان دنس المدنس فلا يقربه أحد ولا يقرب أحدًا .

أما الموعد الآخر فهو موعد العقوبة والجزاء عند الله ، وفي حنق وعنف أمر أن يهوى على عجل الذهب ، فيحرق وينسف ويلقى في الماء ، والعنف إحدى سمات موسى عليه السلام وهو هنا غضبة لله ولدين الله حيث يستحب العنف وتحسن الشدة .

وعلى مشهد الإله المزيف يحرق وينسف ، يعلن موسى عليه السلام حقيقة العقيدة ، فليس هذا إلهكم ، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو فلا يستحق ذلك على العباد إلا هو ، ولا تنفى العبادة إلا له ، فإن كل شيء فقير إليه ، عبد لربه الذي هو عالم بكل شيء .

يقول صاحب الظلال « وينتهي بهذا الإعلان هذا القدر من قصة موسى في هذه السورة ، تتجلى فيه رحمة الله ورعايته بحملة دعوته وعباده ، حتى عندما يتلون فيخطئون ، ولا يزيد السياق شيئًا من مراحل القصة بعد هذا ؛ لأنه بعد ذلك يقع العذاب على بنى إسرائيل بما يرتكبون من آثام وفساد وطغيان ، وجو السورة هو جو الرحمة والرعاية بالمختارين ، فلا حاجة إلى عرض مشاهد أخرى من القصة في هذا الجو الظليل » .

وتنتهى القصة في السورة بالإشارة إلى العبرة والعظة ، فالقرآن ليس تاريخًا يكتب بل منهجًا يهdy إلى صراط مستقيم ، فتكفى اللمحة الدالة ، واللفتة الهادية ، وما يضير بعد أن تلقى الروح في الجسد ، وتعطى البصيرة للبصر ، والإحساس بعد الموات ، وهل التاريخ إلا ذخيرة أيام ذهبّت لأيام تستقبل ، وهل ينتفع البدن بغير ما يفيد ؟ !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

- ١ - معصية الرسول تؤدى إلى فتنة العاصي في دينه ودينه .
- ٢ - قد يخطئ المجتهد وله أجر اجتهاده ، وقد يصيب وله أجران .
- ٣ - مشروعية هجرة المبتدع ونفيه وطرده ، فلا يسمح لأحد بالاتصال به والقرب منه إذا كان في ذلك فائدة .

معانى الكلمات :

- وزرا : حلا ثقيلًا .
 أمثلهم : أعدهم .
 قاعا : أرضا ملساء لا نبات فيها ولا بناء .
 صفتها : أرضا مستوية .
 عنت : ذلت .
 الحى : الدائم الحياة .
 القيوم : الدائم القيام بتدبير الخلق .
 هضبا : نقصا من ثوابه .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعلم أن القرآن ذكر للذاكرين لما يحمل من الحجج والدلائل والبراهين .
- ٢ - أن نقف على حال المجرمين يوم القيامة الذين أعرضوا عن القرآن الكريم .
- ٣ - أن نعلم أن لا نجاة إلا للمتقين ، ويوم القيامة لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل .

المحتوى التربوى :

يعقب السياق بالحديث عن القرآن ، والقصص الذى أوحينا إليك بشأن موسى نقص عليك من أنباء ما قد سبق ، نقصه عليك فى القرآن ذكرا فهو ذكر الله ولآياته ، وتذكير بها كان من هذه الآيات فى القرون الأولى .

ويرسم للمعرضين عن هذا الذكر ويسميهم المجرمين مشهداً فى يوم القيامة ، فهؤلاء المجرمون يحملون أثقالهم كما يحمل المسافر أحماله ، ويا لسوءها من أحوال ، فإذا نفخ فى البوق للتجمع فالمجرمون يحشرون زرق الوجوه من الكدر والغم ، يتخافتون بينهم بالحديث لا يرفعون به صوتا من الرعب والهول ، ومن الرهبة المخيمة على ساعة الحشر .

وفيم يتخافتون ؟ إنهم يحسدون عما قضوا على الأرض من أيام وقد تضاءلت الحياة الدنيا في حسهم وقصرت أيامها في مشاعرهم فليست في حسهم سوى أيام قلائل ، فأما أرشدهم وأصوبهم رأيا فيحسونها أقصر وأقصر فليست إلا يوما ، وهكذا تنزوي تلك الأعمار التي عاشوها على الأرض وتنطوي ، ويتضاءل متاع الحياة وهموم الحياة ، ويبدو ذلك كله فترة وجيزة في الزمان ، وشيئا ضئيلا في القيمة ، فما قيمة عشر ليال ولو حفلت باللذائذ كلها وبالمتاع ؟ وما قيمة ليلة ولو كانت دقائقها ولحظاتها مليئة بالسعادة والمسرّة ، ما قيمة هذه أو تلك إلى جانب الآماد التي لا نهاية لها ، والتي تنتظرهم بعد الحشر وتمتد بهم بلا انقطاع ؟ !

ويزيد مشهد الهول بروزا بالعودة إلى سؤال لهم يسألونه في الدنيا عن الجبال ما يكون من شأنها يومذاك ، فإذا الجواب يصور درجة الهول الذي يواجهونه ، ويتجلى المشهد الرهيب ؛ فإذا الجبال الراسية الراسخة قد نسفت نسفا ، وإذا هي قاع بعد ارتفاع ، قاع صافصف خال من كل نتوء ومن كل اعوجاج ، فلقد سويت الأرض فلا علو فيها ولا انخفاض .

وكأنها تسكن العاصفة بعد ذلك النسف والتسوية ، وتنصت الجموع المحتشدة المحشورة ، وتخفت كل حركة وكل نأمة ، ويستمعون الداعى إلى الموقف فيتبعون توجيهه كالقطيع صامتين مستسلمين لا يلتفتون ولا يتخلفون ، وقد كانوا يدعون إلى الهدى فيتخلفون ويعرضون ، ويعبر عن استسلامهم بأنهم يتبعون داعيهم ، حيثما أمروا بادرؤا إليه ؛ ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم ولكن حيث لا ينفعهم ، وقال محمد بن كعب القرظى : يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة ويطوى السماء ، وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادى مناد فيتبع الناس الصوت فيؤمونه لا يميلون عنه .

ثم يخيم الصمت الرهيب والسكوت الغامر والجلال على الموقف كله ، وتغمر الساحة التي لا يحدها البصر رهبة وصمت وخشوع فالكلام همس والسؤال تخافت والخشوع ضاف ، والوجوه عانية ، قد خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى لا يموت ، القيوم الذى لا ينام وهو قيم على كل شىء ، يدبره ويحفظه ، فهو الكامل فى نفسه الذى كل شىء فقير إليه لا قوام له إلا به ، وجلال الحى القيوم يغمر النفوس بالجلال الرزين ، ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله قوله .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم ، وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال : « أتى العرض وأخر الله ساجداً ، ويفتتح على بمحامد لا أحصيتها الآن ، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ثم يقول : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع ، واشفع تشفع » قال : « فيحدلى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود » فذكر أربع مرات ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

والعلم كله لله فهو يحيط علماً بالخلائق كلهم ، وهم لا يحيطون به علماً ، والظالمون يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة ، فإن الله سيؤدى كل حق إلى صاحبه حتى يقتصر للشاة الجهاء من الشاة القرناء ، وفي الصحيح : « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » ، والخبية كل الخبية لمن لقى الله وهو مشرك به .

لما ذكر الظالمين ووعيدهم ، ثنى بالمتقين وحكمهم ، وهم أنهم لا يُظلمون ولا ييضمون ، فلا يزداد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ، وهم مطمئنون لا يخشون ظلماً في الحساب ولا هضمًا لما عملوا من صالحات ، إنه الجلال ، يغمر الجو كله ويغشاه في حضرة الرحمن .

وهكذا يطرح السؤال ويكون الجواب خاطفاً للفكر والشعور منتزعاً للقلب والإحساس ، فأى هول أعظم من هذا الهول الذى يزيل كل عظيم ظنناه ، ويرقب الكافر نفسه ، صامته مستسلمة لا تلتفت إلى شىء ولا ترعوى على شىء ، شاةً فى قطع لا يتخلف عن أمر راعيه ، لا شفاعة ولا ندامة بل حساب عسير وعذاب مرير ، وخبية لا صلاح بعدها ، كل هذا والمؤمن قرير العين ساكن الفؤاد مستجمع النفس له شفاعة ولا يخاف ظلماً ولا هضمًا .

ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعا لا محالة ، أنزلنا القرآن بشيرا ونذيرا بلسان عربى مبين فصيح لا لبس فيه ولا عى ، ونوعنا فى القرآن من صور الوعيد ومواقفه ومشاهده لعله يستجيش فى نفوس المكذبين شعور التقوى فيتركون المآثم والمحارم والفواحش ، أو يذكرهم بما سيلقون فى الآخرة فينزجروا ويوجد لديهم الطاعة وفعل القربات .

وهكذا يخيم الجلال على السياق كله فينتفض القلب خاشعا متبتلا ، ويهب من سكونه المخزى ، وركونه المزرى ، وإيانه المدعى على أبناء قد قصت ، وعلى إعراض يعقبه حمل أوزار ، ويوم يكون فيه الحشر للمجرمين صغارا محتقرين لا يرفعون أنفا كما كانوا فى الدنيا ، ولا تأخذهم عزة قد سيطرت عليهم فى باطلهم فأصلتهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - أيام الحياة مهما طالت فهى قصيرة إلى جانب الآخرة ، والفالح من أخذها زادا ليوم القيامة .

٢ - لا ينجو إلا المتقون يوم القيامة .

٣ - بيان خيبة المشركين وفوز الموحدين يوم القيامة .

معانى الكلمات :

- يقضى : يفرغ .
أبى : امتنع .
تضحى : تبرز للشمس .
يبلى : يزول .
طفقا : شرعا .
يخصف : يلبصق ويلزق .
فغوى : فضل .
ضنكا : ضيقة شديدة .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١- أن نعلم أن الحكمة من إنزال القرآن باللسان العربى وتصريف الوعيد فيه .
- ٢- أن نقف على عداوة الشيطان لأدم وذريته .
- ٣- أن نعلم سوء حال المعرضين عن هداية الله .

المحتوى التربوى :

لقد كان الرسول ﷺ يلاحق الوحى فيردد ألفاظ القرآن وآياته قبل أن ينتهى الوحى مخافة أن ينسى ، وكان ذلك يشق عليه فأراد ربه أن يطمئن قلبه على الأمانة التى يحملها ، فتعالى الله الملك الحق الذى تعنو له الوجوه ، ويخيب فى حضرته الظالمون ويأمن فى ظله المؤمنون الصالحون ، هو منزل هذا القرآن من عليائه ، فلا يعجل به لسانك فقد نزل القرآن لحكمة ولن يضيعه ، إنها عليك أن تدعو ربك ليزيدك من العلم وأنت مطمئن إلى ما يعطيك لا تخشى عليه الذهاب ، وما العلم إلا ما يعلمه الله فهو الباقي الذى ينفع ولا يضيع ويشمر ولا يخيب .

ثم تحيء قصة آدم بعد عجلة الرسول بالقرآن خوف النسيان ، فيذكر في قصة آدم نقطة النسيان ، وتحيء في السورة التي تكشف عن رحمة الله ورعايته لمن يجتبيهم من عباده ، فيذكر في قصة آدم أن ربه اجتباها فتاب عليه وهدها ، ثم يعقبها مشهد القيامة بصور عاقبة الطائعين من أبنائه وعاقبة العصاة ، وكأنها هي العودة من رحلة الأرض إلى المقر الأول ليجزى كل بما قدمت يدها .

فلنتبع القصة كما جاءت في السياق ، عهد الله إلى آدم كان هو الأكل من كل الثمار سوى شجرة واحدة ، تمثل المحظور الذي لا بد منه لتربية الإرادة وتأكيد الشخصية ، والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذي يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد ، فلا تستعبد بها الرغائب وتقهرها ، وهذا هو المقياس الذي لا يخطئ في قياس الرقى البشرى ، فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها والاستعلاء عليها كانت أعلى في سلم الرقى البشرى .

وها هي ذى التجربة الأولى تعلن نتيجتها الأولى ، فقد نسي آدم ~~الكل~~ ما عهد إليه ربه ، وأمر الملائكة بالسجود فسجدوا إلا إبليس ، وتأتى رعاية الله وعنايته فينبه آدم إلى عدوه ويحذره غدرة عقب نشوزه وعصيانه ، والامتناع عن السجود لآدم كما أمره ربه ، فالشقاء بالكد والعمل والشروء والضلال والقلق والحيرة واللهفة والانتظار والألم والفقدان كلها تنتظر هناك خارج الجنة ، وأنت في حى منها كلها ما دمت في رحاب الفردوس ، فعدم الجوع والعرى والظمأ والحر هذا كله مضمون لك ما دمت في رحابها .

ولكن آدم كان غفلا من التجارب ، وهو يحمل الضعف البشرى تجاه الرغبة في البقاء ، والرغبة في السلطان ، ومن هذه الثغرة نفذ إليه الشيطان ولم يزل به وزوجته حتى أكلا من شجرة الخلد والملك المزعومين ، فبدت السوءات والظاهر أنها السوءات الحسية تبدت لها وكانت عنهما مستورة وأخذوا يلصقان من ورق الجنة عليهما ، وعصى آدم بارتكاب المنهى عنه وغوى بترك المأمور به .

ثم أدركت آدم وزوجه رحمة الله بعدما عصاه ، فقد كانت هذه التجربة الأولى ، فاصطفاه ربه بعد ما استغفر آدم وندم واعتذر ، ولا يذكر هذا هنا لتبدو رحمة الله في الجو وحدها ، ثم صدر الأمر إلى الخصمين اللدودين أن يهبطا إلى أرض المعركة الطويلة بعد الجولة الأولى ، وأعلنت الخصومة في الثقلين ، فلم يعد هناك عذر لآدم وبنيه من بعده أن يقول أحد منهم : إنما أخذت على غرة ومن حيث لا أدرى ، فقد درى وعلم .

ومع هذا الإعلان الذى دوت به السموات والأرضون وشهده الملائكة أجمعون ، شاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسله بالهدى قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم ، فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرى بين آدم وإبليس ، أنه آتيهم بهدى منه ، فمجازٍ كلا منهم بعد ذلك حسبما ضل أو اهتدى .

فمن اتبع الهدى فهو فى أمان من الضلال والشقاء فى الدنيا والآخرة ، ومن خالف أمر ربه وانقطع عن الاتصال به فله معيشة بائسة فى الدنيا فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق حرج لضلاله وإن تنعم ظاهره ، ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى ، فهو فى قلق وشك وحيرة فلا يزال فى ريبة يتردد .

يقول صاحب الظلال : « ما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا فى رحاب الله ، وما يحس راحة الثقة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولاً وعرضاً وعمقاً وسعة ، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان ، لقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه ، فلا جرم يعيش معيشة ضنكا ويحشر فى يوم القيامة أعمى .

وهكذا يوضح السياق مفهوم السعادة والشقاء ، ويصحح المفاهيم الخاطئة فى هذا الأمر ، فالشقاء الحقيقى شقاء الآخرة ، والشقاء الحقيقى فى ترك الهدى مها ظن ظان أن السعادة فى غير ذلك .

يقول صاحب الأساس : « إنه عندما يترك الخلق دين الله يصبح بعضهم لبعض عدواً ، ويصبح الإنسان لنفسه عدواً ؛ إذ يتناقض مع فطرته ، وفى ذلك الشقاء الحقيقى ، إن دين الله هو الذى يجعل الإنسان صديقاً مع نفسه ، وهو الذى يوجد صيغة للتعايش المريح بين الخلق ، ومن ثم نلاحظ أن التشريعات الإسلامية منسوبة على إبعاد المؤمنين عن كل خلاف يهدف إلى قطع الخصومات والمنازعات بين الناس ، وعلى الإنسان أن يتعظ ويعمل من أجل الخلاص من هذا الشقاء باتباع وحى الله » .

ما ترشدنا إليه الآيات تروياً :

١ - الترغيب فى طلب العلم وإشعار النفس بالجهل والحاجة إلى هذا العلم .

٢ - الجنة لا نصب فيها ولا تعب إنها ذلك فى الأرض ، والعاقل من يتعب لراحته الأبدية .

٣ - الشقاوة والمعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكر ربه .

معاني الكلمات :

أسرف : جاوز الحد .

لزاما : لازما .

تمدن : تطل .

اصطبر : دام .

تحزى : تفضح .

متربص : منتظر مصيره .

الصراط السوي : الطريق المستقيم .



ويأخذ السياق جولة حول مصارع الغابرين ، وهي أقرب في الزمان من القيامة ، وهي واقع تشهد العيون إن كانت القيامة غيبا لا تراه الأبصار ، وحين تجول العين والقلب في مصارع القرون ، وحين تطالع العين آثارهم ومساكنهم عن كثب ، وعندئذ يدرك يد القدرة التي أخذت القرون الأولى وهي قادرة على أن تأخذ ما يليها ، وعندئذ يعي معنى الإنذار ، والعبرة أمامه معروضة للأنتظار ، فما هؤلاء القوم لا يهتدون وفي مصارع القرون ما يهدى أولى الألباب ، ولولا أن الله وعدهم ألا يستأصلهم بعذاب الدنيا لحكمة عليا ، لحل بهم ما حل بالقرون الأولى ، ولكنها كلمة سبقت من ربك وأجل قد قدر .

وإذا كانوا مؤخرين إلى أجل ، مهملين لا مهملين ، فلا عليك يا محمد منهم ولا بما أوتوه من زينة الحياة الدنيا ليكون ابتلاء لهم ، فإنما هي الفتنة وما أعطاكه الله إنعاما فهو خير مما أعطاهم ابتلاء ، فاصبر على ما يقولون من كفر واستهزاء ووجود وإعراض ، ولا يضق صدرك بهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، واتجه إلى ربك سبح بحمده قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، في هدأة الصبح وهو يتنفس ويفتح بالحياة ، وفي هدأة الغروب والشمس تودع ، والكون يغمض أجفانه ، وسبح بحمده فترات من الليل والنهار ، كن موصولا بالله على مدار اليوم .

يقول صاحب الظلال : « إن التسيب بالله اتصال ، والنفس التي تتصل تطمئن وترضى ، ترضى وهي في ذلك الجوار الرضى ، وتطمئن وهي في ذلك الحمى الأمن ، فالرضا ثمرة التسيب والعبادة ، وهو وحده جزاء حاضر ينبت من داخل النفس ويترعرع في حنايا القلب » .

اتجه إلى ربك ولا تنظر إلى هؤلاء المترفين وأشباههم ونظراتهم ، وما هم فيه من النعم ، فإنما هو زهرة ، والزهرة سريعة الذبول على ما بها من رواء وزواق ، فإنما نمتعهم بها ابتلاء ، فنكشف عن معادتهم بسلوكتهم مع هذه النعمة وذلك المتاع ، وهو متاع زائل كالزهرة سرعان ما تذبل ، ورزق ربك خير فهو رزق للنعمة لا للفتنة ، رزق طيب خير باق لا يذبل ولا يخذع ولا يفتن .

يقول صاحب الظلال : « وما هي دعوة للزهد في طيبات الحياة الدنيا ، ولكنها دعوة إلى الاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية ، وبالصلة بالله والرضا به ، فلا تهاوى النفوس أمام زينة الثراء ، ولا تفقد اعتزازها بالقيم العليا ، وتبقى دائما تحس حرية الاستعلاء على الزخارف الباطلة التي تبهر الأنظار » .

وأول واجبات الرجل المسلم أن يحول بيته إلى بيت مسلم ، وأن يوجه أهله إلى أداء الفريضة التي تصلهم معه بالله ، فتوحد اتجاههم العلوى في الحياة ، وما أروع الحياة في ظلال بيت أهله كلهم يتجهون إلى الله ، واصطبر على إقامتها كاملة ، وعلى تحقيق آثارها ، إن الصلاة تنهى عن

الفحشاء والمنكر ، وهذه هي آثارها الصحيحة ، وهي في حاجة إلى اصطبار على البلوغ بالصلاة إلى الحد الذي تثمر فيه ثمارها ، هذه في المشاعر والسلوك ، وإلا فما هي صلاة مقامة إنها هي حركات وكلمات ، وإذا أقيمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب فلا تكلفك الطلب ، إنها هي العبادة تستجيش وجدان التقوى ، فالإنسان هو الريح في دنياه وأخراه ، يعبد فيرضى ويطمئن فيستريح ، ويعبد فيجزى الجزاء الأوفى والله غنى عن العالمين .

ويعود السياق بالحديث قرب ختام السورة إلى أولئك الكبراء المتمعين المكذبين ، الذين يطلبون إلى الرسول ﷺ بعد ما جاءهم بهذا القرآن أن يأتيهم بآية من ربه ، وهذا القرآن يبين ويوضح ما جاءت به الرسالات قبله ، فليس إلا التعنت وإلا المكابرة ، وإلا فأية القرآن كافية ، وهو يصل حاضر الرسالة بماضيها ، ويوحد طبيعتها واتجاهها ، ويبين ويفصل ما أجل في الصحف الأولى .

ولقد أعذر الله للمكذبين فأرسل إليهم خاتم المرسلين ﷺ ، وهم لم يذلوا ولم يخزوا لحظة أن كان هذا النص يتلى عليهم ، إنها هو تصوير لمصيرهم المحتوم الذي يذلون فيه ويخزون فلعلهم حينذاك قائلون : ﴿ رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه ؟ وعندما يصل السياق إلى تصوير المصير المحتوم الذي ينتظرهم يؤمر الرسول ﷺ أن ينفذ يده منهم فلا يشقى بهم ، ولا يكرهه عدم إيمانهم ، وأن يعلن إليهم أنه متربص بهم ذلك المصير ، فليتربصوا هم كيف يشاؤون .

وبذلك تختم السورة التي بدأت بنفى إرادة الشقاء عن النبي ﷺ من تنزيل القرآن ، وحددت وظيفة القرآن فهو تذكرة لمن يخشى ، والختام يتناسق مع المطلع كل التناسق ، فهو التذكرة الأخيرة لمن تنفعه التذكرة ، وليس بعد البلاغ إلا انتظار العاقبة ، والعاقبة بيد الله .
ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

- ١ - وجوب الصبر على تبليغ دعوة الله ، وسلوك أحسن المسالك إليها .
- ٢ - الرضا بما قسمه الله من رزق انتظرًا لرزق الآخرة الآخرة الخالد الباقي .
- ٣ - الذلة والخزي تصيب أهل النار يوم القيامة لما فرطوا فيه من الإيثار والعمل الصالح .